منشـــورات جامعـــة بـــير زيت

امثولة أبي ذر وأعظم الضرورة

« دراســـة في الحـــدود التاريخيـــة للتطرف الاجـــتماعي »

بقـــلم

سـلـيم تمـاري

دائرة عـــلم الاجـــتماع وعـــلم الإنســـان

في جامعـــة بـــير زيت

SPC
BP
80
.A27
T35
1975
BZU

Digitized by Birzeit University Library

Acc # 193518

منشـــورات جامعـــة بـــير زيت

١ـ أبو ذر الغفاري ـ فلسفة
٢ـ التاريخ الاسلامي ـ أصول اجتماعية

امشولة أبي ذر وأعظم الضرورة

« دراســة في الحــدود التاريخيــة للتطرف الاجــتماعي »

SPC
BP
80
.A27
T35
1975

مكتبة جامعة بيرزيت
المجموعات الخاصة
Special Collections
BIRZEIT UNIVERSITY LIBRARY

بقـــلم

سـلـيم تمـاري

دائرة عـــلم الاجـــتماع وعـــلم الإنســـان
في جامعـــة بـير زيت

BZU

قدم هـذا البحث في ســلسـلة محاضرات العــلوم الاجتماعيـة في جامعة بير زيت للعـام الدرا،

Digitized by Birzeit University Library

يحتل كفاح ابي ذر الغفارى في الميثلوجيا الثورية لموءرخي فجر الاسلام المحدثين قمة شامخة .. ففي موته الملحمي بصحراء الربذة ـ حيث نفاه عثمان خوفا من تأليبه العامة على طغيان تجار بني اميـــة واستئثارهم بسلطة الدولة ـ ، يجد هذا الشيخ الجليل مكانه التاريخـي بجانب مقتل الحلاج مصلوبا ومصرع قائد الزنج " الخبيث "[1] ، ولا يضاهيه في موقفه البطولي في تاريخ فجر الاسلام الا ذكرى استشهاد الحسيـن في كربلاء .

والذى يهمنا من امر ابي ذر هنا هو الاهتمام الزائد الـذى اولاه موءخرا الموءرخون التقدميون في اعادة كتابة تاريخ الاسلام الاول لمركزية دوره في تزعمه لواء المقاومة ضد "تحريفات" روح الشـــريعة الاسلامية بعد خلافة ابو بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، وضد حكـم معاوية في سوريا حين كان الاخير والي عثمان في بلاد الشام ، وجعل ابو ذر الامثولة التاريخية الحية لتطبيق الاتجاه الجذرى في هذه الشريعة ـ حتى عندما ادى تمسكه العنيد بتعاليم الرسول ـ كما فهمهـا ابـو ذر ـ الى هلاكه وهلاك امرأته واطفاله . والتشبه هنا باستشـــهاد الحسين ليس ببعيد كما يظهر لاول وهلة ـ بالرغم من الهـــوة الواسعة بين أحياء الشيعة لذكرى الحسين في محرم واحياء اليسار لذكرى ابو ذر. فكلا الذكرين ـ من منطلقين مختلفين ـ يخدمـان اغراضا ايديولوجية معينة ساهمت في طمس طبيعة النضال الاصلـي للشهيدين في الظروف التي عاصرها . فعند الشيعة ـ وهم الفئـات الاكثر حرمانا في العراق اليوم ـ تلعب طقوس كربلاء وظيفة التنفيـس عن القهر الجماعي الذى تعاني منه جماهير الشيعة المسحوقة . وتلعب ذكرى ابي ذر في واقع يختلف تماما دور احياء التقاليد الثورية فـي صدر الاسلام وربطها بالاتجاهات الراديكالية الاسلامية المعاصرة ...

١ـ هو علي بن محمد زعيم الزنج ، هزمه جند الموفق على رأس جيوشـه العباسية عام ٢٧٠ هـ (٨٨٣م) ،في المختارة عاصمة ثورة الزنج ، ثـم احتز رأسه وارسل راسه الى الخليفة في لغداد .

Digitized by Birzeit University Library

ويبدو ان شخصية الغفارى ملائمة لهذا الغرض حيث تعرض علينـــا كاستمرار طبيعي لمنطق العدالة الاجتماعية المطلقة التي تظهر فـي احاديث الرسول • يساعد هؤلاء المؤرخين في ذلك فشخصية ابو ذر الفذة التي جمعت بين التقوى والورع وروح العناد في التصدى للظلم • فهو من الصحابة الاولين ، ويقال انه خامس "وفي بعض الروايات رابع" من أسلم • وهو من رواة الحديث "وصلنا عنه ٣١ حديثا "•[٢] ويمثل ابو ذر منفردا التيار البدائي الذى استطاع فيما بعد ـ تحت لواء الحركة القرمطية ـ ان يقيم جنة للمسلمين على الارض، كما يحلو للبعض ان يشير اليهم في مجمع البحرين وسواد العراق • وعند اخرين ـ كأحمد عباس صالح والذكتور محمود اسماعيل ـ يصبح ابو ذر " الاشتراكي الاول " في الاسلام •

هذه صورة الغفارى كما تبدو لنا في الاسلاميات الحديثـــة • وسنحاول في هذه المساهمة ان نتبين مقدار الصحة في هذه الصورة، ليس لانه مبالغ فيها ـ فالمفروض هو ليس التقليل من بطولة ابي ذر، وانما لانها اولا ، لا تتعرض لشخصية الغفارى ضمن احكام الضـــرورة التاريخية ـ اى ضمن امكانيات القدرة الكامنة لعامل اجتماعي معين للتغيير داخل معطيات تاريخية محدودة ، هي التركيب الاقتصادى ـ الاجتماعي في الامصار الاسلامية المفتوحة • وثانيا ، لانها تحاول ان تخدم هدفا ايديولوجيا معينا في وقتنا " عن حسن نية بلا شـــك " وهو وضع الحركات التقدمية في حالة استمرارية مع مثيلاتها من التيارات المتواجدة في التراث الاسلامي وذلك لاضفاء الشرعية التاريخية عليهـــا ،

٢ـ في البخارى ومسلم ، ويقال ان له ٢٨٠ حديثا لم يصلنا منها الا القليل • كما قيل انه آمن بوحدانية الله قبل الاسلام ، ولا يعرف اذا كان حنيفيا ام من اهل الكتاب ، بالرغم من انه شبه بالمسيح في تنسكـه • (راجع الموسوعة الاسلامية في بند "ابو ذر" ـ الطبعة الثانية ـ لايدن ١٩٦٠) •

Digitized by Birzeit University Library

ولنفي صفة الهرطقة " والا ستيراد " عنها . وغالبا ما يكون هـــــذا "التشريح " والنفي على حساب الموضوعية العلمية في فهم المضمـــون التاريخي الاصلي ، ويصبح المنهج الجدلي هو الضحية الاولـى فـــي كلا الحالتين : في فهم احكام الضرورة وفي الهدف الايديولوجي [٣] .

المثاليـــة الثورية والواقـــع التاريخـــي

ان الادعاء بان ابي ذر هو " اول اشتراكي في الاسلام " وتحميله مهمة قيادة القوى الطبقية المناهضة للمصالح التجارية الارستقراطية في صدر الاسلام ينطبق اكثر على اصحاب الاخلاقيات الثورية المثاليـــة منه على التحليل الموضوعي للتاريخ . ونلاحظ اليوم زخامة الاستعمالات الايديولوجية "بالمعنى التشويهي للكلمة "[٤] لمفاهيم "الاشتراكيـــة " و "الثورية " و "الحرية " وعلاقتها بالتطور التاريخي للمجتمع الاسلامي بحيث تعرض للمسخ فهمنا لهذه المجتمعات وقدرة القـــارئ على الاستيعاب الدقيق لهذه المفاهيم .

٣ــ قد لا يجوز لاهداف فنية ــ كمعالجة صلاح عبد العبد لشخصيـــة الحلاج او كما فعل بريخت في شخصية جاليليو ــ ان نقوم بتشويـــــه (او بالاحرى باعادة تركيب) الشخصية التاريخية لخدمة اغـــــراض ايديولوجه معاصرة ، والنتجه في هاتين الحالتين كانت موفقة مسرحيا ، ولكن ما يجوز في النص الادبي لا يجوز في التفسير العلمي للتاريخ .

٤ــ نستعمل كلمة "ايديولوجيا" هنا وفيما يلي لتعني اعادة تركيب الواقع التاريخي والاجتماعي لخدمة تصور مسبق لصاحب التحليل عن هذا الواقع دون ان يخضع هذا التصور للرؤيا العلمية .

Digitized by Birzeit University Library

ان المسخ التحريفي للتاريخ الاسلامي الذى كان فـــي السابق حكرا على اليمين الديني[٥] اصبح اليوم - وبازدياد - يتعرض لمنافسة شديدة من اليسار. وسنأخذ مثالا هنا تصدى احمد عباس صالح في كتابه الاخير (" اليمين واليسار في الاسلام " للتفسير الاقتصادى المبتذل للصراع الاجتماعي في الاسلام حيث يقول :

" يقول كثير من المستشرقين ان الاساس الاقتصادى والاجتماعي للاسلام هو المصالح التجارية للمجتمع المكي ، فعندما توسع تجار مكـــة في اعمالهم كان عليهم ان يوحدوا الجزيرة العربية تحت قيادتهم حتى يؤمنوا تجارتهم ويمدوا نفوذهم الى اوسع مجال يستطيعون بلوغـه ."

ويرد المؤلف على هذا الزعم بتبسيط اكثر ابتذالا :

" وهذا التفسير خاطئ من اساسه ، اذ ان ابسط تفســـير له هو انكار جوهر الاسلام وهو اشتراكيته "كذا) . الامر الذى يتعارض مع طموح كبار التجار. ثم ان تاريخ الدعوة الاسلاميـة والحرب الضارية التي وجهت بها الدعوة من كبار التجار وعلـى رأسهم ابو سفيان يتناقض مع هذا التفسير. كما ان مصادر التشريـــع الاسلامي الاساسية - القرآن والسنة - على النقيض من هذا تماما[٦]".

- ان اى دراسة دقيقة للتاريخ الاسلامي الاول ستقنـــع القارئ بان " الحرب الضارية التي ووجهت بها الدعوة الاسلامية من كبار التجار وعلى رأسهم ابو سفيان " لا تتبع بالضرورة مـــن "اشتراكية الاسلام " بقدر ما كانت تشكل ردة فعل لظهور دعـوة

---

٥ - راجع مثلا كتاب عبد الحميد جوده السحار "الاشتراكي الزاهد ابو ذر الغفارى " وخصوصا مقدمة حسن البنا المرشد العام للاخوان المسلمين لهذا الكتاب . (القاهره ١٩٤٣) . ويبدو ان الكتاب ظهر في الفترة التي كانت "الاشتراكية "ما زالت كلمة مرادفة للعدل الاجتماعي عند الفكر اليميني الديني .

٦ - أحمد عباس صالح "اليمين واليسار في الاسلام " ، ص ٤٤ (التشديد زائد) .

Digitized by Birzeit University Library

النبي الدينية في مكة وما تمثله من خطر اجتماعي وسياسي على ارستقراطية قريش التجارية . والتميز بين "الخطرين" (الخطر "الاشتراكي" - اى التطبيق - وخطر الدعوة الدينية) بالغ الاهمية في رأيي حين يتضح - في خلال أعوام قليلة من وفاة الرسول - استئثار هذه الارستقراطية للسلطة المطلقة ليس فقط في مرافق الدولة الاسلامية وانما ايضا في احتكارها لتفسير اخلاقيات الدين الاقتصادية . اذ يصبح لزاما على المؤرخ هنا ان يقرر فيما اذا كانت هذه الارستقراطية قد حرفت الرسالة الاسلامية لمصالحها - كما يلمح صالح - ام انها قد استوعبتها واندمجت ضمن لواء الايدولوجية الجديدة بشكل ساهم في استعادتها لسلطتها التي فقدتها مؤقتا خلال هجرة الرسول الى المدينة . اما الادعاء بان "مصادر التشريع الاسلامي الاساسية - القرآن والسنة - "كانت" على النقيض من مصالح قريش التجارية فهو اعتبار اعتباطي لا يمكن التحقق منه الا اذا درسنا المعطيات الاقتصادية ضمن اطار المجتمع الاسلامي حينذاك .

ان "الانشقاق العامودى" كما يسميه احمد صالح - الذى اصاب المجتمع العربي الاسلامي في بداية الفتوحات لم يكن مجرد نزاع بين اليمين واليسار، بين الجناح الراديكالي المطالب بالعدالة الاجتماعية (جناح ابو ذر وبشكل اقل علي بن ابي طالب) وبين الجناح التجارى الارستقراطي (الممثل بأبي سفيان وابنه معاوية - حاكم سوريا) . لقد كانت الازمة الرئيسية التي تواجه المجتمع الاسلامي حينذاك هي قدرة جهاز الدولة وجناحه العسكرى الذى فتح العراق وبلاد الشام - في الهيمنة واسع وملىء بالتناقضات الاجتماعية والقومية دون ان تعرض بالاسس العقائدية للدين التي ظهرت في الحجاز . ولكن كي يستطيع هذا الجهاز الادارى والعسكرى ان يستمر في هيمنته على مجتمعات اكثر تحضرا واكثر تعقيدا من المجتمع العربي الحجازى "البدوى والتجارى" كان لا بد للعقيدة ان تتعرض لاهتزازات ايدولوجية عنيفة افرزت تيارات فكرية متناقضة حول المعنى المتوخى من آيات القرآن وأحاديث الرسول .

ولكي نفهم الدور التاريخي لامثولة ابي ذر في هذه الصراعات لا بد لنا - في رأيي - ان نتناول طبيعة المجابهة السياسية الرئيسية في

Digitized by Birzeit University Library

فجر الفتوحات : المجابهة بين علي واتباعه من جهة والمحاولة المستمرة لاستئثار معاوية وارستقراطية بنو امية على السلطة . اما محاولة عرض كفاح ابي ذر خارج التناقض السياسي الرئيسي فتنتهي بتجريد الاخلاقيات الاقتصادية الاسلامية من اطارها الاجتماعي وانزلاق الباحث في مطب اللاتاريخية .

القاعـــدة الاجتماعيـــة للتطـــــرف
فـــي فجـــر الاســـــلام

من الاخطاء الشائعة بين مؤرخي اليسار معاملة جميع الحركات المناهضة لطغيان ارستقراطية بني امية في الحجاز وسوريا في "زمن عثمان" كأنها اتجاهات ثورية ، تهدف الى العدالة الاجتماعية ، والى تطبيق المفاهيم الاسلامية ضد الاحتكار التي دعا اليها الرسول . بينما نرى انه منذ اندلاع حروب الردة بعد موت الرسول والقضاء العسكرى عليها من قبل جيوش ابـــــي بكر يظهر لنا بوضوح ان احد التناقضات الرئيسية في فجر الاسلام كان بين التركيب التجارى الحرفي المركزى للدولة الاسلامية (اولا في المدينة ثم في دمشق) وبين النزعات اللامركزية الفوضوية لبدو الحجاز وشمال الجزيرة . ومما أعطى هذا التناقض بعدة المدمر هو الانصياع السياسي لعرب الحجاز من البادية لسلطة الرسول دون ان يتبعها استيعاب حضارى وعقائدى لتعاليم الدين الاسلامي – اى دون ان تتغير القاعدة الاجتماعية لنمط حياتهم ، مما حدا بهم الى الانشقاق عن سلطة الخلافة في المدينة فور وفاة النبي واندلاع حرب اهلية في فجر الاسلام لارغامهم علـــى البقاء في اطار الدولة . (٧)

ان هذا التناقض الرئيسي بين التنظيم الحضرى المركزى للدولة الاسلامية وبين النزعة البدوية الفوضوية كان يتعايش جنبا الى جنب في صدر الاسلام مع التناقض الطبقي بين حكم ارستقراطية قريش التجارية وبين طموحات الجماهير المسلمة المسحوقة من موالي وسواد اهل المدن سواء في الحجاز او في الامصار المفتوحة .

---

٧ – كان هذا التناقض من المواضيع الرئيسية التي احتلت مكانة بارزة في مقدمة ابن خلدون . وقد اشار المؤرخ الشهير في عدة اماكن الى التأثير المخرب للبدو على العمران . ولا ريب انه تأثر من مشاهداته لاثر غزوات بنو هلال في شمال افريقيا على دولتي المرابطين والموحدين .

Digitized by Birzeit University Library

وفي كثير من الحقب في صدر الاسلام كان هذا التناقض الحضري ـ البدوي ينفجر في ازمات تهدد كيان تماسك الدولة الاسلامية كمجتمع حضاري وتبرز جميع التناقضات الاخرى ـ بما في ذلك التناقض الاجتماعي ـ الطبقي ، كما حدث في حروب الردة وفي ثورة الخوارج على علي ومعاوية .

وهذا لا ينفي ان تكون الكثير من ظواهر التمرد ضد سلطة الدولة المركزية قد اخذت طابعا مزدوجا ـ طبقيا وبدويا في نفس الوقت . ففي حركة الخوارج مثلا ـ وهم يمثلون اصدق تعبيرعن هذه الازدواجية في التمرد ـ نرى ان اغلب اتباعهم كانوا ينتمون الى محاربي قبيلة تميم في شمال الجزيرة ،(٨) بينما كان اغلب قادتهم "خصوصا في بداية حركتهم ينتمون الى العناصر البدوية في الجيوش الاسلامية في الكوفة والبصرة " (٩) وكان الخوارج متطرفين ايضا في عقيدتهم ، بالرغم من سطحيتها وبساطتها (اذا قارناهم مع القرامطة مثلا) ،وابرز ما فيها تشديدهم على المساواة في الخلافة والدعوة الى العدالة المطلقة . وهناك قصة غير موثوق بها ـ ولكنها تعكس موقفهم المفرط في المساواة ـ عن الخارجي "ذى الثدية " من عرب تميم الذى اجترأ على النبي وهو يوزع الغنائم في يوم حنين قائلا قائلا : " اعدل يا محمد فانك لم تعدل " . " ١٠ " ويذكرنا هذا الموقف بمواجهة ابي ذر لمعاوية وهو يبني قصره في الشام بقوله "يا معاويه ان كانت هذه هي من مال الله فهي الخيانة ،وان كانت من مالك فهي الاسراف" (١١) وقوله الشهير "لا ينبغي لمن ادى الزكاة ان يقنى حتى يطعم الجائع ويعطي السائل ويبر الجيران " . (١٢) ولا شك ان الخوارج يمثلون مجتمعين كحركة الاخلاقيات الثورية في العدالة الاجتماعية والمساواة

---

٨ ـ ديللا فيدا ، "الخوارج "في الموسوعة الاسلامية ،كذلك محمود اسماعيل "قضايا في التاريخ الاسلامي منهج وتطبيق " ص ـ ٦٨ و ٧١ من الحاشية)

٩ ـ ديللا فيدا ـ المرجع السابق .

١٠ ـ يورد القصة د . محمود اسماعيل في قضايا (ص ٨٠) عن طه حسين الفتنة الكبرى

١١ ـ السحار ،الاشتراكي الزاهد ابو ذر الغفارى ص ١٤٠

١٢ ـ ورد في احمد عباس صالح ،المرجع السابق ص ٦٧

Digitized by Birzeit University Library

التي كان يعبر عنها ابو ذر الغفارى منفردا . وهم يشكلون استمرارا تاريخيا لنزعته المتمردة بثورتها وبهامشيتها . ولماذا "بهامشيتها" ؟

لان القاعدة الاجتماعية لحركة الخوارج ، وهي استمرار اجتماعي لحركة الردة في الجزيرة (ويجب ان يعنينا في هذا المجال "وثنية" الاولى والتدين المفرط عند الثانية عن رؤوية وجه الشبه) ما كانت لتستطيع ان تحلل اعباء ادارة الدولة المركزية ، بل لم تستطيع ان تحافظ على تماسكها مع حلفائها في وجه جيوش معاوية .. ونستطيع التأكد من هذا الضعف من عدة دلائلا تاريخية منها :×

- فئوية الخوارج المفرطة في وجه على ، واصرارهم على ان يعترف الاخير بارتدائه (عن الاسلام) حتى قبل بالتحكيم ، هذا في الوقت الذى لم يكن بينهم اى خلافات جوهرية في الرأى "١٣"

- نزعتهم المتطرفة نحو الاستشهاد للعمل العلني حتى عندما كانوا اقلية في وجه اعدائهم ، لعلمهم بأنهم يمثلون الحق ، وهذه النزعة تفسر لنا العدد الكبير من القتلى في معارك الخوارج .

- فوضويتهم وعفويتهم : يشير احد المؤرخين في هذا المجال الى افتقار الخوارج "الى التنظيم واتسامهم بالعفوية والثورية المفرطة ، فما كان يجتمع منهم مائة او اكثر حتى يعمدون الى الثورة ، فيبعث اليهم علي بفرقة من جنده فتبيدهم عن آخرهم ." (١٤)

بالرغم من هذه الادلة فان باحثا ممحصا مثل الدكتور محمد اسماعيل يهمل اهمية القاعدة القبلية البدوية في تنظيم الخوارج بدليل انهم "لم يلفظوا فكرة الخلافة ذاتها ، بل رأوا ضرورة وجود امام لتنفيذ الشريعة واقامة الحدود وحماية المسلمين .. الخ " وكذلك بانهم "لم يرفضوا قط نظام الدولة السياسي ، وانما هدفوا لاقامة دولة على اساس ديمقراطي ،

---

١٣ - فلهوزن ، "الدولة العربية وسقوطها" ، ص ٧١

١٤ - محمود اسماعيل "قضايا" ص ٨٤ ابن الاثير

Digitized by Birzeit University Library

فكانوا لذلك جمهوريو الاسلام بلا مدافع". (١٥) وهو يشـــــدد على التعليلات الدينية لاختلافهم مع علي بالرغم من توثيقة لممارستهم المدمرة بما في ذلك تعليق القلقشندى عنهم في معركة النهروان بأنهم " كانوا غوغاء لا راس لهم "(١٦) .

اما احمد صالح العلمي فيرجع اسباب هزيمة الاتجـــاه الراديكالي (ابو ذر والخوارج وشيعة علي) الى "مثالية اليســـار وانتهازية اليمين " ـ كما عنون احدى دراساته ـ وان "الظروف الاجتماعية كانت عاملا حاسما من بين عوامل حاسمة اخرى كمثالية اليسار مثلا وارتباطه بشرف الوسيلة كشرف الغاية (و) الى حداثة العقيدة في النفوس (و) الى حرية اليمين في العمل دون اى قيد من ضمير او مبادىء حتى المبادىء الاسلامية ذاتها"(١٧) . اما ابو ذر فيرى المؤلـف ـ وربما عن حق في هذه المرة ـ بأنه لم يستطع ان يؤلـــب الشعب على معاوية وعلى عثمان (لان) اليسار كان ينصح ويأمـــر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وكان ابو ذر يقول انه يتوجه بالنصـــح للاغنياء قبل ان يتوجه بدعوته الى الفقراء ، وكان يقول انه يتمنى الا يضطر الى هذه الوجهة الاخيرة فتكون الثورة " (١٨) .

١٥ـ المرجع السابق ص ٧٣

١٦ـ يشكك اسماعيل بهذا التقييم ، ويحاول في كل دراسته ان يغلب ممارساتهم المسؤولة .

١٧ـ احمد عباس صالح ، "اليمين واليسار في الاسلام" ، ص ١٣٧

١٨ـ نفس المرجع ، ص ١٤٤

Digitized by Birzeit University Library

اما اليمين الاسلامي ـ حسب هذا التحليل ـ فقد عبأ قواه بعد مقتل عثمان خلف معاوية ، الذى كان يعمل ـ هو ومن قبله ابو سفيان ـ عن وعي لخدمة المصالح التجارية في الدولة منذ ايام الجاهلية ، ومن اجل استلام زمام السلطة بينما لم يقدم معسكر اليسار لانصاره "الا راحة الضمير ومرضاة الله" (١٩) . وسوف نرى ان هذا التقسيم الاعتباطي لمفاهيم اليسار واليمين في النزاع بين معاوية وخصومه هو اقرب الى الدفاع عن الاشتراكية الناصرية وانصارها في الستينات ، منه الى التحليل العلمي للصراع الطبقي والحضارى في صدر الاسلام .

تناقضات النظام الاموى
المملكة الحيوانية للدين

ان المسألة الجوهرية في هذا النقاش تقع في تحديد الاتجاه السياسي في صدر الاسلام الذى كان اكثر قابليتها ـ اثر انهيار الخلافة الراشدية ـ للقيام بمهام المحافظة على نمو ودينماكية المجتمع الاسلامي الذى أسس الرسول والخلفاء الراشدون أسسه الاولية ، ومن الممكن تلخيص هذه المهام ١ ـ استلام السلطة ، ٢ـ المحافظة على كيان المجتمع الاسلامي من التجزئة نتيجة استيعابه لقوميات وتيارات حضارية غير متجانسة ، واخيرا ٣ ـ دفع قوة الانتاجية الى الامام . وبالطبع فاننا لن نتناول هذه المسائل في هذا المقال القصير الا بمقدار علاقتها بموضع احكام الضرورة التاريخية .

١٩ـ احمد عباس صالح ، نفس المرجع ، ص ١٤٥ وما يتبعها . ظهرت هذه الدراسة في البداية على حلقات في مجلة الكاتب ـ لسان حال مفكرى اليسار المصرى حينذاك ـ في منتصف الستينات . وقد حاول الكاتب في عدة اماكن اظهار اشتراكية عبد الناصر بانها الوريث الطبيعي لرسالة محمد ولكفاح ابو ذر وعلي (راجع خصوصا ص ١٣٥ ـ ١٣٦) . والكتاب بالرغم من ضحالته النظرية في بعض الفقرات ممتع وجدير بالقراءة .

Digitized by Birzeit University Library

يبدو لي ان تقييم هاميلتون جيب لدور معاوية التاريخي، بالرغم من نقائصه، في القيام بهذه المهام، وفشل العلويين في ذلك، على جانب كبير من الصحة . اذ يرى جيب ان الخلافة الاموية في دمشق جاءت " نتيجة تحالف او مهادنة بين تلك العناصر التي شكلت المثال الديني للامة الاسلامية ـ المتحدة تحت لواء التضامن في تراث الرسول وسنته (اى عناصر الصحابة والقراء في المدينة وأمصار العراق، س . ت .) ومن جهة اخرى التفسير المكي الدينوى (٢٠) للوحدة، (كلاهما) ضد خطر الفوضى المتمثلة في العناصر القبائلية ." (٢١)

ان هذه الاطروحة ـ المبسطة في حد ذاتها ـ والتي ترد على الاطروحات الاكثر تبسيطا للصراع (مثلا تصويره كتناقض بين المصالح السورية والعراقية في الامصار المفتوحة،(٢٢) او تصويره من قبل المحرفين اعلاه كصراع بين اليمين واليسار" تفتح المجال امامنا لتحديد اوضح للطبيعة الهيكلية للنظام الاموى وتناقضاته .

يصف ادونيس النظام الاموى ـ في بحثه الرائد عن الاتباع والابداع عند العرب ـ بانه " المملكة الحيوانية للدين "، ٢٣ استعارة من تعبير هيجل عن المجتمع البرجوازى الذى وصفه بـ"المملكة الحيوانية للعقل " . حيث لم ير في القوى الاجتماعية الجديدة التي استوعبتها الفتوحات، الا "قوى سلبية مهدمة يجب كبحها وقمعها " بينما تبنت الدولة ـ في محاربة اهل البدع ـ النظرية القائلة بان "الماضي التاريخي للاسلام كما نشأ واستقر يجب ان يتكرر، باعتباره النموذج الارقي "(٢٤) ولكن يفوت ادونيس بان النظام الاموى بجبروته وعنصريته وقمعه كان البديل

---

٢٠ ـ افضل هنا استعمال كلمة "دنيوى" بدلا من علماني مقابل كلمة في الاصل الانجليزى، لان "علماني" لا معنى لها في هذا الظرف التاريخي .

٢١ ـ هاميلتون جيب، "دراسات في حضارة الاسلام" ص ٨ . (النسخة الانجليزية) يؤيد هذا التحليل الدكتور عبد العزيز الدورى في كتابه "مقدمة في التاريخ الاقتصادى العربي" ص ٢٢

٢٢ ـ راجع مثلا مبريان تيرز، فيبر والاسلام . دراسة نقدية ص ٨٤

٢٣ ـ ادونيس "الثابت والمتحول . بحث في الاتباع والابداع عيد العرب" ص ٨٣

٢٤ ـ ادونيس، المرجع السابق، ص ٨٢

Digitized by Birzeit University Library

التاريخي الوحيد الذى استوعب احكام الضرورة ،وتمكن من (امتطاء التاريخ " .

ففي علاقتهم مع القبائل "عاد خلفاء بني امية الى السياسة المكية القديمة المبنية على المهادنة وعلى تنسيب مصالحهم مع مصالح العناصر القبلية ،واردفوا ذلك باحياء السياسة المدينية المبنية على التوسع وتوزيع الغنائم " (٢٥) ولكن هذه السياسة المهادنة لم يكتب لها ان تستمر في ظل معارضة الخوارج والعناصر القبلية الاخرى في العراق ،(٢٦) التي دفعت الخلافة الى توطيد مركزية السلطة ،وقمع الثورات القبلية بواسطة الحاميات السورية التي ارسلها معاوية الى العراق .

ان اقامة سلطة الدولة المركزية وتطوير الجهاز البيروقراطي والعسكرى المناسب لادارة الامبراطورية الجديدة المترامية الاطراف هي الانجاز التاريخي العبقرى لنظام معاوية الذى لم يكن باستطاعة المعارضة الخوارجية ولا العلوية ان تقوم به ،بالرغم من (ام هل نقول بسبب ؟) تفوقها على نظام معاويه في احساسها المرهف بروح العدالة الاجتماعية ودعوتها لمحاربة احتكارات الارستقراطية الملكية ،وبالرغم من رفض هذه المعارضة ـ في حركة الخوارج ـ لسيطرة قريش على الخلافة واستمالتها لعناصر عديده من الموالي من غير العرب .

ولكن النظام الاموى بالرغم من هذا الانجاز التاريخي كان مليء بالتناقضات الاجتماعية الناتجة عن عدم التجانس الحضارى والاقتصادى في الامصار المفتوحة ،ولذلك فان امثولة ابي ذر واستمرارياتها العلوية والخوارجية تأخذ طابعا ملحا وجذريا ،ولا يمكن ان "نتخلص من

---

٢٥ ـ جيب ،المرجع السابق

٢٦ ـ راجع دراسة م . شعبان عن الخلفيات القبائلية للسياسة الاموية في كتابه "التاريخ الاسلامي . تفسير جديد" خصوصا الفصل عن "معاوية والحرب الاهلية الثانية "ص ٧٩ ـ ٩٩

Digitized by Birzeit University Library

تفسيرها بمجرد الاشارة الى انها لم تعط البديل التاريخي لحكم معاوية . ولكي نستوعب الاهمية التاريخية للمعارضة الجذرية في اطارها الصحيح علينا ان نجيب على سؤالين :-

١ - ما هي طبيعة النظام الاجتماعي - الاقتصادي في صدر الاسلام ؟

٢ - ما هو جوهر الاخلاقيات الاقتصادية في التشريع الاسلامي التي تتلائم مع متطلبات هذا النظام ؟

يجب ان نتجنب قبل كل شيء محاولة التبسيط الزائد للامور . وبالذات اعني التصنيف الاعتباطي للمجتمع الاسلامي في البلاد المفتوحة بناء على بعض خصائص سطحية نستشفها من تاريخ بني امية او من تبعهم ، يريحنا عناء البحث المستفيض عن الطبيعة الشاملة للبناء الهيكلي لذلك النظام . ويرضي في نفس الوقت نزعة تبسيط الظواهر التاريخية المعقدة التي نراها عند الكثيرين من علماء الاجتماع .

وللاسف فان هذا الداء التصنيفي يصيب العديد من الدارسين الماركسيين للتاريخ الاقتصادي الاسلامي - خصوصا العرب منهم . ففي كتابة الاخير "نظرة جديدة الى التراث" يشير محمد عماره بشكل قاطع الى ظهور " النظام الاقطاعي " في المجتمع الاسلامي مكان الاستبداد البيزنطي "وخاصة عندما آل الحكم الى بني امية ، وتحولت السلطة الساسية من " خلافة شورية " الى نظام "ملكي اقطاعي "عتيد " . (٢٧) وهذا فقط نموذج واحد من امثلة عديدة ، لا مكان للتعرض لها في هذا المجال . ولم ينجح من هذه النزعة حتى المستشرق السوفياتي المرموق بلاييف حيث يحدد التغييرات الاجتماعية - الاقتصادية في

---

٢٧ - محمد عماره ، "نظرة جديدة الى التراث" ، ص ١٦٣ . قارن هذا التحليل بالدراسة الممتعة والدقيقة للهادي العلوي . " تشريح الاستبداد ونشوء البيروقراطية في الاسلام " في كتابه "في الدين والتراث" ص ٢٨ - ٥٤

Digitized by Birzeit University Library

الخلافة الاموية على انها تجسد "انتظار العلاقات الاقطاعية بين شعوب الخلافة بما في ذلك العرب" ويضيف " تحت تأثير الاحوال الاقطاعية في البلدان المفتوحة ،رأت هذه الحقبة تحول الارستقراطية العربية من اصحاب العبيد ،الى طبقة اقطاعية حاكمة في الخلافة "،دون ان يبرز الدلائل الملموسة على هذا الادعاء الشمولي . (٢٨) ويظهر عند التدقيق ان كلا من عمارة وبلاييف ينسبان عصر معاوية والخلافة الاموية نظاما اقطاعيا لم يتبادر تماما الا لاحقا في الحكم العثماني . (٢٩)

بالمقارنة من هذه النزعة التصنيفية المبسطة نلاحظ في اعمال عبد العزيز الدورى اهتماما ايجابيا "بالتعقيدات التفصيلية " . يرى المؤلف ان الاثر الرئيسي للفتوحات كانت انهاء نظام الاقطاع الساساني القديم وتحرير الفلاحين من رق الارض . (٣٠) وقد برز اتجاه في عهد عثمان الى اقطاع انطاره اقسام من الاراضي المفتوحة " مما لم يتعين مالكوه على ان يدفعوا لبيت المال شيئا مقابل الايجار او الضمان "،(٣١) الا ان هذا الاتجاه الاقطاعي "مع استمراره واتساعه في عهد بني اميه كان يكون فقط جزء من الصورة الاجتماعية ـ الاقتصادية لتلك الحقبه مالتي كانت تتسم لازدهار واسع للتجارة ،ولظهور الدولة المركزية ونظام العطاء والارزاق . كما اخذ لتركيب الطبقي للمجتمع الاسلامي يتبلور ويتميز بدخول الموالي الى مرافق الحضارة الجديدة ،" ولم يكن هؤلاء من طبقة اجتماعية واحدة فبينهم التجار والصرافون ،ومنهم الكتاب ومنهم الفلاحون والصناع،ومنهم من برز في العلوم الاسلامية والعربية " (٣٢) وفيما

---

٢٨ ـ ى . بلاييف "العرب والاسلام الخلافة العربية في اوائل العصور الوسطى "ص ١٥٤ "النسخة الانجليزية " ،من اجل مراجعة ادق لطبيعة الاقطاع في الاسلام راجع تيرنر،"فيبر والاسلام . دراسة نقدية "صفحات ٧٦ ـ ٧٧ ٨١ ـ ٨٢،١٢٢ ـ ١٢٤ ،١٢٦ ـ ١٣٩ . كذلك راجع نقد رودنسون لكن هذا الموضوع في كتابه "الاسلام والرأسمالية "ص ١٠٨ ـ ١٢٩

٢٩ ـ راجع تيرنر،المصدر السابق ،ص ١٤٦

٣٠ ـ الدورى ،السابق ،ص ١٤٦

٣١ ـ الماوردى الاحكام السلطانية ،ذكر في الدورى المرجع السابق ،ص ٢٦

Digitized by Birzeit University Library

بعد اصبح يشكل هؤلاء الاخيرون العمود الفقرى للنظام الادارى ـ ال
البيروقراطي في الدولة الاسلامية . ولكن عمل الموالي لم يقتصر على
هذا النظام فقد كانت معظم "الحرف والصنايع والفلاحة والصيرفة" بأيديهم ،
وهي اعمال كانت القبائل العربية في الامصار تحتقرها . ومن الملاحظ
في هذه الفترة ايضا الهجرات المتزايدة من الفلاحين الموالي الى المدن .
" ٣٣ كل هذه السمات لا تبشر بتحول السلطة من " خلافة شورية الى
نظام اقطاعي عتيد " .

المهم انه من الناحية النظرية لا يمكن الفصل تماما في طبيعة
النظام الانتاجي في صدر الاسلام ويبدو لي ان ارقى ما وصل اليه البحث
العلمي في هذا الموضوع هو دراسة روبنسون عن علاقة الاسلام في الرأسمالية
حيث يصل الى الاستنتاج الاولي بأن السمات الهيكلية للنظام الاقتصادى
ـ الاجتماعي في صدر الاسلام كان مجزأ غير متجانس . الا ان تطور الدولة
الاموية باتجاه بيروقراطي ـ رأسمالي اعطاه تجانسا فريدا استطاع ان
يحافظ على تماسك التناقضات الهيكلية في النظام الاقتصادى لحقبة طويلة .
فيجانب احتوائه على البرجوازية الاسلامية التجارية والمصرفية استطاع هذا
النظام ان يكفل "تعايشا لم يكن دائما سلميا" بين نظام انتاجي حر فيه
المدن ، وزراعي يعتمد على القنين في بعض الاقاليم "جنوب العراق مثلا"
وعلى العمل المأجور في مناطق اخرى وعلى الفلاحة المتمتعة بالملكية
الفردية (في اغلب الاقاليم) على الاغلب .(٣٤) كل هذا يشير الى خطأ
اضفاء صفة الاقطاعية ، او في بعض التحليلات ، صيغة الانتاج الآسيوية
لهذه المرحلة الانتقالية .

"اشتراكية "الاسلام وهاشمية ابو ذر الغفارى نأتي الآن الى
الطرف الثاني من السؤال الذى طرحناه اعلاه :

---

٣٢ ـ الدورى ، ص ١٤٦ ـ ١٤٧

٣٣ ـ المرجع السابق ، ص ١٤٧

٣٤ ـ رودنسون ، "الاسلام والرأسمالية" ص ١٠٤ وص ١١٨ ـ ١١٩

Digitized by Birzeit University Library

ما هو جوهر الاخلاقيات الاقتصادية في التشريع الاسلامي التي كانت تتلائم مع هذا النظام الاجتماعي ؟ وما هو موقف ابي ذر والمعارضة الراديكالية لتحكم ارستقراطية قريش في جهاز الدولة في خلافة عثمان ؟

من الممكن ان نتخذ موقفا انتقائيا في هذا الموضوع ونقتطف تلك السور من القرآن والحديث الذى تتلائم مع اشتراكية الاسلام المزعومة وننتهي باستنتاج منتقي محكم لاطروحة تبرهن ان نظام ابو ذر ورفاقه هو نضال الاتجاه الديمقراطي الاشتراكي في فجر الاسلام ضد الاتجاه التجارى المستقل . ولكن ما ان نضع هذه الحجة المنطقية في محك البيئة التاريخية التي ظهرت فيه الرسالة المحمدية وفي ظروف توسعها الحضارى حتى نصطدم بالمعطيات التاريخية التالية .

ـ ان الشريعة الاسلاميه حللت الملكية الخاصة والربح التجارى، والاستثمارى ، وحددت الفكرة الاستغلالية . (٣٥)

ـ ان الشريعة الاسلامية حللت التفاوت الطبقي ، (٣٦)

---

٣٥ ـ سورة النساء ، كذلك راجع رودنسون ص ٧٨

٣٦ ـ سورة اسرى ، ٢١ واخرى عديده

Digitized by Birzeit University Library
Digitized by Birzeit University Library

وحثت على سلطة القربى ومساعدة الفقير .

- ان الشريعة الاسلامية جللت العبودية وشجعت على عتق العبيد "٣٧" .

- ان الشريعة الاسلامية حللت تراكم رأس المال المتوارث وحرمت تراكم رأس المال الربوي "٣٨" .

ويمكن القول بهذا المجال ان الاخلاقيات الاقتصادية في الشريعة الاسلامية هي اقرب الاخلاقيات الى النظام الرأسمالي وحوافزه بين جميع الاديان السماوية الثلاث . (٣٩) وهذا الحكم ليس نقدا ولا يشكل انتقاصا للدور التقدمي الذي قامت به الحضارة الاسلامية في دفع المجتمعات البشرية التي اقتنعت رسالتها الى مرحلة اعلى في بني البشرية وانما هو تقييم سوسيولوجي يعكس طبيعة البيئة التجارية التي ظهر فيها الوعي في الحجاز حيث افرد الرسول للتأجر الصندوق الامين مكانه مختاره "مع النبيين والصديقين والشهداء" . "٤٠" وحيث شكلت التجارة والربح الرأسمالي عصب الحياة للقسم الاعظم من رافعي الرسالة الاسلامية .

---

٣٧ - النساء ٣٦

٣٨ - البقرة ، ٢٧٦ - ٢٨٢

٣٩ - ربما باستثناء الاتجاه الكلفاني في الحركة البروتستانية .

٤٠ - ابن ماجة والترمذي ، عن رودنسون ، ص ٥٢

Digitized by Birzeit University Library

وفي دراسته المستفيضة للتعابير الاقتصادية في القرآن توصل شارلز ثورى الى الاستنتاج بان الاستعمالات اللغوية السائدة في القرآن لوصف طبيعة العلاقة بين الانسان المسلم وربه هي للتعابير التجارية ، وان هذه الظاهرة الفريدة في القرآن تميزه ككتاب سماوى عن الانجيل والتوراة (العهد القديم) ، ويضيف ثورى على ذلك بانه "لا توجد في التعابير الدينية في القرآن، من البداية الى النهاية ، اقسام اكثر انعكاسا للبيئة العربية ، او اكثر اهمية في هيكل الكتاب عامة " من هذه الروح التجارية " . (٤١)

ومن المعالجات التي تلقي ضوءً جديداً على موضوعنا هي تحليل الهادى العلوى للاصول التاريخية لاية المواريث في دراسته الاخيرة "تحريم كنز الاموال ، اسراره ومتعلقاته "، (٤٢) وهي في رأيي من أجرأ وأدق الدراسات الحديثة حول الجدل المتعلق بالاخلاقيات الاقتصادية في صدر الاسلام .

ففي دراسة العلوى لايتي العفو (سورة البقرة ،اية ٢١٥) والكنز (سورة براءة ـ التوبة ، اية ٣٥) نرى ان النصوص القرآنية التي تتعلق بالاكتناز واستثمار الاموال كانت عرضة لجدل عنيف بين الاتجاهات الراديكالية ، وخصومها في صدر الاسلام . ومع ان هذا الجدل كان في البداية يتركز حول شمولية اية الكنز ("... والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم .") على اغنياء المسلمين ام اقتصارها على

٤١ـ شارلز ثورى " التعابير التجارية اللاهوتية في القرآن " لايدن (١٨٩٢) ص ٤٧ ـ ٤٨ .

٤٢ـ الهادى العلوى " في التراث والدين " طبعة القدس(١٩٧٥) ص ٥٥ ـ ٨٠ .

Digitized by Birzeit University Library

اهل الذمة ـ كما قد يفهم من الشطر الاول من الاية ، الا ان النزاع انتشر فيما بعد ليشمل شرعية احتفاظ المسلم ما يزيد عن حاجته من الاموال ، وهو موقف متطرف بيدو ان أبا ذر كان يدعو اليه . وفي هذا المجال يقول العلوى :

" ... ومما احتجوا به على ابي ذر اية المواريث ذكر الالوسي في (روح المعاني) انهم كانوا يقرأون لبي ذر اية المواريث ويقولون لو وجب انفاق كل المال لم يكن للاية وجه . يقصدون منه ان وجود نص في الكتاب لتنظيم أحكام الميراث يفترض بالضرورة وجود المال الذى يورث. وهذه من الحجج البالغة التي جوبه بها ابو ذر وهي تؤكد ما سبق القول فيه من الغاء تحريم الكنز واباحة تملك الاموال ." (٤٣)

الا ان موقف ابي ذر ما كان ـ على ما يبدو ـ يفرق بين تكنيز الاموال بمعنى تجميدها ، وبين استثمارها في مشاريع مالية تهدف الى زيادة ربح المالك . ولا اعلم لماذا يصر العلوى على ان اوائل المسلمين لم يكونوا ليميزوا بين هاتين العمليتين ،(٤٤) بالرغم من ان كل الادلة تشير ان نظامهم التجارى كان قد تطور ـ حتى في جاهلية مكة ـ الى مستوى عال من التخصص في المعاملات المالية والاستثمار الرأسمالي التجارى ، بل ان اية الكنز نفسها تفقد معناها الاجتماعي الردعي اذا لم تحوى على هذا التمييز الاساسي بين رأس المال المدخر ورأس المال المستثمر . ولعل هذا هو الاشكال الذى يشير اليه العلوى فيما بعد في تعليقه على الزمخشرى في " ان تطبيق حكم الكنز مع وجود مصادر الانتاج الحرة امر غاية في الصعوبة " (٤٥)

٤٣ـ العلوى ، المصدر السابق ص ٧١ .

٤٤ـ صفحة ٧٢ .

٤٥ـ العلوى ، المصدر السابق ص ٧٥ .

Digitized by Birzeit University Library

ولا يمكننا في هذا المجال الا ان نوافق على تفسير الدكتور محمد شوقي الفنجرى في ان الاخلاقيات الاقتصادية للاسلام تسمح بتراكم الاموال تحت الشروط التالية : ١ــ ان يستثمر امواله في الانتاج ويسمح لها بالتداول وان لا يكنزها ، ٢ــ ان يحافظ على الاعتدال في انفاقه الشخصي ، ٣ــ ان ينفق دخله في صالح المجتمع . (٤٦) وكل هذه الشروط تتفق مع الاخلاقيات الرأسمالية العقلانية ، بما في ذلك الشق الاخير ، اذا انطلقنا من مفهوم اهمية التراكم الرأسمالية لدفع القوى الانتاجية في الاسلام في صدر خلافة بني امية . فتعبير " انفاق الدخل في صالح المجتمع " لا يمكن ان يعني في هذا المضمون التاريخي الا اغناء الرأسمالي لنفسه عن طريق استثمار امواله في مشاريع تجارية وانتاجية ذات طابع اجتماعي عام ..

ومن هنا فاننا نصل الى النتيجة بان موقف ابي ذر من تكديس الاموال ومن الاغنياء عموما كان محكوم عليه تاريخيا بالهامشية من حيث تأثيره على تطور الحركات الثورية في صدر الاسلام . فهو يمثل المعارضة المطلقة للثراء ولا يفرق بين الاكتناز والاستثمار. وقد يعترض القارئ انه من السخف ان نبحث في اقوال ابي ذر عن تحليل اقتصادى مكتمل لبنية المجتمع الاسلامي في صدر الاسلام وان " ندينه " لغياب هذا التميز الدقيق بين الاستثمار الرأسمالي والاكتناز . ولكن حكمنا هنا مصدره ليس غياب التحليل الاكاديمي في اقوال ابي ذر وانما هو الدور التحريضي العملي الذى قام به ضد الاغنياء في حقبة تاريخية لم يكن لهذا التطرف الاجتماعي دور

---

٤٦ ــ محمد الفنجرى ، " الاسلام والطبقات الاجتماعية " مجلة العربي ، رقم ١٩٦ ، آذار ١٩٧٥ .

Digitized by Birzeit University Library

نقدمي ، ويمكن الاشارة الى ان الزهد المتطرف هو الذى يغلـــب على اخلاقيات ابو ذر اكثر من المواجهة الثورية لحكم تجار بني امية ، كما يمكن الملاحظة من هذه الخطبة التي رويت عنه :

" يا معشر الاغنياء ، انفقوا ما أعطاكم الله ، ولا تغرنكم الحياة الدنيا ، واجعلوا في اموالكم حقا للسائل والمحروم ، قال رسول اللـــه (صلعم) : " الهاكم التكاثر ، يقول ابن آدم مالي مالي ، وهل لك مـن مال الا ما اكلت فأفنيت ؟ او لبست فأبليت ؟ او تصدقت فأبقيت ؟

" يا معشر الاغنياء لقد نهى الله عز وجل عن الكنوز وقال رسول الله : تبا للذهب ! تبا للفضة ! تبا للذهب ! تبا للفضة ! ! " (٤٧)

ولعلنا نجد اقرب واروع تصوير لهامشية ابي ذر في روايـة جمال ابو حمدان القصيرة عن جندب بن حنادة حيث يتمثله واقفـا ـ حين دنا اجله ـ في جماهير (! !) الربذه ، وقد كان الجـــوع مهيمنا على القوم وهم يتوقعون ان يشير اليهم ابو ذر بمخرج مـــن وضعهم اليائس، (وكان ابو ذر قد حار، في كيف يبدأ ، وماذا يقول لهم اذا أمضى ايامه الاخيرة في التزود بالعلم في داره ، ولم يخرج في الناس متحدثا ، وازداد ارتباكه ، حين طالعته عيون الاطفال المطلة من بين القامات . ولم يكن قد التقى بالاطفال في أزقة المدينـــة من قبل ، فخمن انهم قد ولدوا اثناء عزلته لطلب العلم) ـ (٤٨) فأخذ يصرخ بهم قولته المشهورة " يا قوم ! ! انني لاعجب لرجل لا يجد

٤٧ـ عبد الحميد جودة السحار "الاشتراكي الزاهد ابو ذر الغفارى ص ، ١٤٥ .

٤٨ـ جمال ابو حمدان ، "ابو ذر الغفارى " ، في مجموعته احزان كثيرة وثدثة غزلان ص ٦٥ ـ ٦٨ . وبالطبع فان التفسير الذى اوردته هنا لهـذه القصة الممعنة في الذاتية التاريخية ، المعاصرة لنا جدا في نفس الوقت ، قد لا تتفق مع المعنى الذى اراده لها المؤلف ، ولكني لا اظنه ـ وهـــو الروائي المبدع ـ يعترض على هذا الاقحام .

Digitized by Birzeit University Library

القوت في بيته ، ولا يخرج في الناس شاهرا سيفه ". وظل يكرر هـــذا القول دون ان يشير بعمل ما حتى انفض الناس عنه وانصرفوا الـى بيوتهم "!! نجد في هذه الصفحات المعدودة الجمـــع الاخاذ ـ في ومضة سريعة من الرؤيا القصصية ـ بين خصائص الحقبة التاريخية وشخصية الفرد الملهم ـ الذى لم يأتيه الالهام في هذه الحالة .

امثولة ابي ذر والحدود التاريخية

يمكننا الان ان ناتي الى خلاصة العلاقة التي حاولنا ايرادهـا اعلاه بين احكام الضرورة التاريخية وحدود التطرف الاجتماعي في التاريخ . لقد عالجنا جهاد ابو ذر ضد هيمنة الارستقراطية القريشية على مقاليد الحكم في خلافة عثمان، وتأثير النيار المقاوم الذى فجره ضد توطيـــد حكم بني امية ضمن المعطيات الاقتصادية ـ الاجتماعية الهامة لتلك الفتـــرة الحاسمة في تطور الحضارة الاسلامية . وحكمنا على جهاد ابي ذر بالهامشية التاريخية لثلاث اسباب : اولها ان كفاح ابو ذر كان يتسم بالزهد "الثورى" اكثر منه بالوعي السياسي ، وعرضنا هنا لاخلاقياته الاقتصادية وتعارضها مع التفسير السائـد ـ او الذى ساد فيما بعد ـ لاخلاقيات الاســـلام الاقتصادية في الثورة والاستثمار والذى كان يتناسب مع متطلبات التوســع الاقيليمي والتراكم الرأسمالي في بداية الفتوحات . السبب الثاني ، هو ان التطرف الاجتماعي الذى مثله ابـو ذر في صدر الاسلام ـ بعكـــس الزخم الثورى الذى مثلته حركته الزنج او القرامطة ـ لم تتوفر له القاعـــدة الاجتماعية التي كان بالامكان ان ينطلق منها ابو ذر الى مقارعة شرعية النظـــام القائم ، ولا يوجـد عندنا دلائل بانه كان يقصد تحديا من هذا النـــوع الثورى . وهنا علينا ان لا نخلط بين الشعبية والقاعدة الاجتماعية ، اذ ان ثقوى جندب ومكانته المرموقة بين الصحابة لم تكن لتشكيل ركائز نيار معارض له وزنه في تقرير مصير امة المسلمين في نهاية الخلافة الراشدية وهـــذا ينقلنا الى السبب الثالث فـــي هامشـــــــية ابـــــي

Digitized by Birzeit University Library

ذر وهو اعتقادنا بان البديل السياسي الوحيد الذى كان بمقدوره الخروج بالمسلمين من التناقضات الحضارية والاجتماعية التي فرضتها الفتوحات السريعة على خلافة الراشدين هي دولة بنحر امية ذات الطابع المركزى والمدني والتجارى ، وقد كانت هذه المتطلبات معدومة في جميع انحاء معاوية من خوارج وعلويين والمعارضة الدينية في الحجاز والمعروف ان ابا ذر قد كرس كفاحه الاخير في محاربة معاوية "وانحرافات" عثمان الارستقراطية دون ان يبلور محورا سياسيا لالتقاء العديد من الرافضين لهيمنة تجار قريش المنزايد في الخلافة . وفي نظرنا ان اقرب هذه التيارات الذى يشكل استمرارية لتفكير ابي ذر في جنوحه نحو الزهد والمساواة المطلقة ـ وهو تيار الخوارج ـ وهو المتميز في القاعدة القبلية الفوضوية والميالة نحو الاستشهاد البطولي . وفي رايي ان هذه النقطة الاخيرة في حاجة الى التطوير النظرى وبصورة خاصه الى اعادة النظر في دور معاوية التاريخي وطبيعة نزاعه مع علي ـ وهي قضية لم يكن باستطاعتنا الاسهاب بها هنا .

ان احكام الضرورة التاريخية ، التي حددت هامشية ابو ذر في تحليلنا اعلاه هي ما اهمله العديد من المؤرخين الماديين في فجر الاسلام ، وقد قاموا بهذا التحريف لخدمة اغراض ايدولوجية معاصره ، اهمها الدفاع عن "اشتراكية" النظام الناصرى واعتباره استمرارية للتراث الراديكالي الثورى الذى افرزته التناقضات المتصارعة في الحضارة الاسلامية الاولى ، والتي يمثل ابو ذر احد روافدها العامة . وفي دفاعهم هذا المقرون بالانتهازية السياسية احيانا ، وبانعدام المبدأية والدقة في التحليل التاريخي ، اهمل هؤلاء المؤرخون قاعدة هامة من ركائز الثقافة العلمانية التقدمية الخديثة ، وهي النقد الديني ـ بابعاده الجذرية الواسعة ـ اى ضمن مخطط موسوعي لنقض "كل ما هو قائم" ، وبهدف تجديد مضمون الثقافة العربية المعاصرة بحيث تكن واعية لوصولها من اطار السعي وراء الخقيقة الشاملة وليس بصبغ الحقيقة في الوان النظم القائمة والتي استنفدت دورها التاريخي المحدود .

Digitized by Birzeit University Library

استدراك : الحتمية واحكام الضرورة

ان للضرورة التاريخية احكام قاسية ، ولكنها ليست حتميـــة .
فالحدث التاريخي لا يحسم الا بعد حدوثه ، حينذاك ننتقل من ميدان الامكانية الى ميدان التفسير وهذا ما تعرضنا له في هذه الدراسة . ذلك انه ما كنا نحكم على ابي ذر بالهامشية لو وعى ابو ذر احكام الضرورة وناضل ضمن امكانياتها . ولكنه حاول ان يناضل خارج الضرورة وان يتجاوز ففشل . ولكن في فشله عبرٌ يجب ان نستوعبها كما استوعبتها جميع الحركات التي نجحت في تغيير بنية المجتمع الاسلامي في العصر الوسيط .

امثولة ابي ذر اذن هي امثولة معارضة الضرورة ، ولكن "الضرورة عمياء فقط عندما لا نفهمها" (هيجل) ويعلق انجلز على هذا المفهوم بقوله "ان الحرية لا تعني ان يحلم المرء بالا ستقلال عن القوانين الطبيعية ، بل في معرفة هذه القوانين ، وفي الامكانية التي نكشفها هذه المعرفة في اخضاع هذه القوانين لاهداف محدده ." ٤٩

وغني عن البيان ان ضرورة ابي ذر هي عمياء ـ كما كانت النزعة الاستشهادية عند الخوارج عمياء . ولكن عماها كان ملهما للاجيال اللاحقة ، التي جعلت من امثولة ابي ذر ورفاقه نشيد زحفها وعلم تحريرها . اما مأساوية كفاحهم ضد ضرورة عصرهم فتقع في انهم اضطروا ان يؤسسوا صرح كفاحهم ضد النظام الاستبدادى داخل الاطار الايدولوجي للاستبداد ، وان يركزوا نضالهم على النواحي المثالية الاخلاقية في التراث الديني (الكفاية عند ابي ذر ، المساواة في الخلافة عند الخوارج) ، وبدلا من محاولة تعديل هيكل النظام المستبد اقتصروا على مهاجمة الرموز البشرية القاهرة . وهزموا . وكانت هزيمتهم عـــــــــــــــــــــــبره

---

٤٩ ـ فردريك انجلز "انتى دوهرنج" ص ١٢٥ (النسخة الانجليزية)

Digitized by Birzeit University Library

لاتباعهم ولاحقيهم من الثائرين – من قرامطة وصفارين – وغيرهم (والتاريخ الاسلامي لا يخلو من اتباع ابي ذر) الذين وعوا احكام الضرورة وانطلقوا ضمن امكانيتها ، فوجدوا ان باستطاعتهم تحقيق المستحيل . وان الحتمية الوحيدة هي الضرورة العمياء .

المراجع :

للقارئ المهتم بالمصادر الاولية لحياة ابي ذر عليه بالرجوع الى هذه الاعمال :

ابن قتيبة " المعارف ص ١٣٠ " ، اليعقوبي (٢) ص ١٣٨ ، المسعودى "مروج الذهب ٤ – ص ٢٦٨ – ٢٧٤ " ، ابن الاثير " أسد الغابة ٥ – ص ١٨٦ – ١٨٨ " ، النوادى " تهذيب الاسماء – ص ٧١٤ وما يليها " . في الاعمال التالية أتبعنا المصدر الانجليزى بحرف " أ " :

عبدالحميد جودة السحار ، " الاشتراكي الزاهد ابو ذر الغفارى " القاهرة ١٩٤٣ .

احمد عباس صالح ، " اليمين واليسار في الاسلام " ، بيروت ١٩٧٣ .

محمود اسماعيل ، " قضايا في التاريخ الاسلامي : منهج وتطبيق " القاهرة ١٩٧٤ دليلا فيدا ، " الخوارج " في الموسوعة الاسلامية ، لايدن ، " الطبعة الثانية " !

جوليوس فلهوزن ، " الدولة العربية وسقوطها " دمشق ١٩٥٦ .

عبدالعزيز الدورى ، " مقدمة في التاريخ الاقتصادى العربي " بيروت ١٩٦٩ .

هاملتون جيب ، " دراسات في حضارة الاسلام " ، بوسطن ١٩٦٨ (أ) .

بريان تيرنر ، " فيبرو الاسلام ، دراسة نقدية ، لندن ١٩٧٤ (أ) .

أدونيس ، " الثبات والمتحول : بحث في الاتباع والابداع عند العرب " ، بيروت ١٩٧٤ .

Digitized by Birzeit University Library

م . شعبان ، التاريخ الاسلامي : تفسير جديد " ،كامبريدج ١٩٧١ (أ) .

محمد عمارة ، " نظرة جديدة الى التراث" بيروت ١٩٧٤.

هادى العلوى ، " في الدين والتراث" القدس ١٩٧٥ .

ى . بلاييف ، " العرب والاسلام والخلافة العربية في اوائل العصور الوسطى " ، القدس ١٩٦٩ (أ) .

مكسيم رودنسون ، " الاسلام والرأسمالية " ، بيروت ١٩٦٨ .

شارلز نورى ، " التعابير النجارية ـ اللاهوتية في القرآن " لايدن ، ١٨٩٢ "أ" .

محمد الفنجرى ، " الاسلام والطبقات الاجتماعية " ، مجلة العربي ،رقم ١٩٦ ،آذار ١٩٧٥ .

جمال ابو حمدان ، " ابو ذر الغفارى " في " احزان كثيرة وثلاثة غزلان " ، بيروت ١٩٧٠ فريدريك انجلز ، " انتى دوهرنج " ، نيويورك ١٩٧٢ (أ) .

Digitized by Birzeit University Library